



خبز القلب

كيف سيتلقّى غيرُ الكرديّ أغلظَ الأيمان هذا: قَسَمَ الغاضبِ بقبرِ الله أو قَسَمَ العنيدِ بأيرِ الذبابة؟

الكينينغ Kenning، في الأشعار الألمانية والإسكندنافية والإنكليزية القروسطية، تسمية مجازية لمخلوقٍ ما أو شيءٍ ما، عوضاً عن مناداته باسمه المتداول. اللغات عموماً، والشعر خصوصاً، تزخر بهذه المجازات، وهي على الأرجح تعابير سحيقة القدم غامضة الأصول ومجهولة المؤلفين. إنها تحجب المسمّى بأسماء أخرى مخترعة قد تبدو للوهلة الأولى أغاراً. ثمة متعة في الوقوف عند تقاطعات محتملة بين الأساطير الجرمانية والأنغلو-سكسونية والإسكندنافية وبين الملاحم الأولى للغات الهندو-أوربية، واللغة الكردية إحداها. مقارناتي هذه غير ممكنة بأية حال إلا في أرض الخيال، وهي مقارنات شعرية بصرية أولاً، تحاول أن تربط خيال الشمال الكردي بشمال هذا الكوكب.

في القرن الثالث عشر، جمع سنوري شتورلسن ملاحم الساغا الإيسلندية، الحافلة بالكثير من تلك التسميات شديدة التنوع، وهنا اثنان من أبسطها: "مُطعمِ الغربان" أي المحارب، و"قطعة الخبز" أي القلب، وأضيف إن "أطعمِ النسر" كانت تعني "اقتلْ عدوك". كان شتورلسن قد كتب إن غاية مثل هذا الأسلوب هو مِران الشاعر على فهم ما يُقال بطرق ملتوية أو مبهمّة، فكتب عن نظم الشعر من دون توريّات، حيث "تسمية كل شيء باسمه"، على غرار آدم في الديانات الإبراهيمية، ولكن العكس هو الجليّ، ففي هذا الشعر الملحميّ مداوَرَةٌ لا تسمّي الأشياء بأسمائها عادة.

تحتوي اللغة الكرمانجية في سوريا تسميات عديدة مشابهة، قد تتراءى كأقنعة لغوية طوطمية: "أذن الشيطان" هي المحارة، "طيّارة الشيطان" هي اليعسوب، "سليمان ذو المنقارين" هو الهدهد، "يد الصباح" هي الفجر، "مُخصي الضفادع" هو المتبطلّ الصجران، "بيت الطفل" هو الرحم، "ذات الروحين" هي الحُبلى... إلخ، غير أنني سأتوقف عند عالم المخلوقات الصغيرة والحشرات التي سترث الأرض والإنسان. كان الأهالي، في بعض قرى الأكراد، يوكّلون إلى النمل في الأيام المشمسة مهمةً الافتراس لتنظيف صوفِ عباةاتهم من القمل والصنبان، وكانوا يلقنون أطفالهم الصبر والدأب والتواضع بوضعهم عراً فوق قرى النمل، فيحتلّ الطفل هيجانَ النمل وقرصاتها المؤلمة، وقد يبُلل سبّابته بلعابه ليلتقط نملة كبيرة ويلتهمها بنهم لأن حموضتها مستساغة. كان أكلة النمل مكرّمين وجزء من دورة الطبيعة،



فيما كان العقاب ينزل بالصغار بعد عبث مبارياتهم حين كان المتبارون في رشق البول إلى أبعد مسافة ممكنة يُغرقون ببولهم مخلوقاتِ الله المباركة هذه ويهدمون بيوتها في براري الصيف. لا يُنسى هنا إن أجدادهم قد نهبوا مراراً مخازن الحنطة التي يلملمها النمل فسدّت رمقهم أيام المَحَلِّ والمجاعات.

مشط الأصلع

السحلية حيوان مبارك في الثقافة الكردية الشعبية، إذ يقال إنها هُرعت إلى إطفاء حريق شبَّ في منزل الصحابيِّ أبي بكر الصديق أثناء غيابه، فكانت برشاقتها وسرعتها تحمل الماء بفمها من الجرار وتلقيه على ألسنة النار حتى خمدت. إحدى تسميات السحلية هي "وسادة الثعبان"، أما تسمية أمّ أربع وأربعين فهي "مشط الثعبان". تكاد هذه التسميات تتاخم أدب الأطفال، ولا أميل إلى تأويلها سياسياً بالقول إن الأضعف خادم للأقوى، أو بالقول إنها تحايلُ على القمع الذي تفرضه اللغات المهيمنة. لعل هذه الكنايات البصرية ضرورةٌ نجهل أسبابها وضربٌ من المتعة في آن معاً، كأنها ضُور فقدت صلاتها مع صور أخرى في حكاية شعرية لن نعرفها، وما الشعر أحياناً إلا الاهتداء إلى صلات مفقودة بين أشياء تباعدت بها الأزمنة والأمكنة. هذه لذات الخيال الصغيرة في العزلات الطويلة وسط الجبال والثلوج، حيث عاش الأسلاف، مُطوّقين بالصخور العظيمة، قريبين من السماء، مُخوّفين بالموت في قسوة الطبيعة وحنانها، حيث ماتت كلمات كثيرة قبل أن تولد على شفاه الرعاة، وحيث ولدت كلمات أخرى وشاخت سريعاً وتداركها الزمن مثلما طوى كلمة "السجنجل" الفارسية- "المرآة" المُذكّرة في معلّقة امرئ القيس.

روشنی





سِرّ الهواء

لا تبدو تلك الصور مجتَرَحَةً للزينة والإبهار، وإنما هي جزء جوهري من المعنى. كانت اختراعاً للمرادف والظلل، بعضاً من توريثات القدر، لا مجرد خُلية لفظية أو محض لعبة أو موعظة أو تحويلاً لعنف الأساطير إلى شكل من اللهو والتسلية. تلك المجازات الصغرى، البديعة والغريبة كالأمثال، يتناقها الأكراد عبر القرون، شفويّاً على الأقل، مُهَرَّبَةً كالجواهر، حاضرة كبقايا جمال مندثر. إنها أعمدة شفاقة نحتها الزمن وتقوم عليها اللغة، تعبر من عصرٍ إلى عصرٍ ببطء شديد فتُعَلِّفُ كأعمدة الكاتدرائيات بطبقاتٍ جديدة من الأحجار-الكلمات، وتنجو من الحرائق والقصف والزلازل. نجت الأمثال الكردية من حملات التعريب والتتريك القسريين، كما نجا العقرب من انفجار تشرنوبيل، والعناكب بعد تدمير هيروشيما وناغازاكي. الحضارة هنا تحيا شفاهاً، شعراً وموسيقى، لا تُرى ولا تُلمَس في الجمار أحجاراً ومعادن، ففي النهاية الأغنية أو القصيدة ليست إلا خيوطاً من كلمات، ينفخها فم الخالق أو عقله، في الهواء أو الحبر أو في آلة موسيقية، وهما ذاكرةٌ حية للغة في لحم الإنسان. الكلمات والموسيقى حركات في الهواء، أنفاسٌ لا تُرى ولا تُعرف إلا بأثرها. الملاحم الشفوية ليست حجر رشيد ولا قصر فرساي. هنا حجّي وسياحتي، في هذا التراث المتواضع، الزائل أمام الأوابد والصروح، أقول لنفسي، متذكراً عواصف الأمم العظيمة ومعاركها، ثم مستدرِكاً إن النسمة، في اللغة الكرمانجية، هي "سِرّ الهواء".

ربما الشعر تأويل مجازيٍّ لمجهول اللغة. كان سركون بولص في "جزيرة الأدرج" اليونانية "حيث تنطلق السنونوات بين صواري السفن/ كمشة من النقاط والفوارز، حفنةً من الحروف والكلمات/ أطلقها من يده شاعر أعمى/ لِيُجَبِّرَ عظامَ جملة/ ويكشف لنا فجأة معناها". شاعر مجهول رأى الكلماتِ نملاً قتلها بردُ الصفحات، والغربان كلمات الله تمشي على صفحة الثلج، وأخزُ رأى النقاطِ برازَ ذبابٍ على أسلاك المصابيح، والفاصلة المنقوطة قفازَ ملاكم في ارتداد قبضته عن الصفحة تاركةً كدمة صغيرة على شكل نقطة.

تطريز الستارتين

ما انفكّ الشعراء يبحثون عن كلمات يعيدون بها، من جديد، على مرّ الأحقاب، قولَ ما قيل. وفي عصرنا هذا، يندر



النحت اللغوي الحيّ لمقاربة ما يفوق الوصف، يندر العثور على قناعٍ لغوي يُقال به ما يعجزنا قوله أو لا نريد. فمثلاً، يكاد يتعدّر العثور على كلمات تحيط بالألم أو الحبّ، فتصفهما حقاً من دون تزييفهما أو ابتذالهما. سيقال بالكردية "شفتان مخيطان"، فنفهم إن ثمة صمتاً يربُّ إثر مصيبة، لأنّ الكلمة ستغادر الفم في ولادة عسيرة، وتشقّ الشفتين اللتين تُشبهتا بأشجار الفُج، ثم تجتاز "الستارة" (أي "غشاء الطبل" بالكردية) لتتقبر من فورها في عتمة الأذن، إذ ما من أحدٍ يسمع أحداً.

تتخُ تلك اللقى المجازية المذكورة نوعاً من الترحُّل اللغوي يبتّ في الصميم ألفة وحيناً مبهماً إلى بداية مفقودة، فتتلوّن المعاني بالتجاور بين المتقابلات والنقائض والمتباعدات. الغريب هو المسموع كل يوم، الأليف المتجدّر في اللسان، المنسيّ لشدّ ما يعاش، هو ما سبق للعقل التيه فيه والجولان جولان لسان العاشق في فم معشوقه. الشعر يلتقط هذا الغريب، ويرفع حجاباً عن عادات الأشياء ومذولها وحتى دفينها. قد تصادف، حتى يومنا هذا، من يقول إن الشاعر "الفحل" يفتصّ بكارة الكلمات، أو يهيم في غابة سوداء عذراء، وأمام "فحولة" هذه الاستعارات التي روجتها أسبابٌ شتى أضع كلمة "غشاء البكارة" التي تعني بالكردية "الستارة"- ستارة بين دم الغريزة ودم الجريمة، بين ظلام الجسد ونور العالم، ولا نعلم من أيّ جانبيها سيأتي الموت، لأقول إن الشعر يزيج الستارة بين العقل والطفولة، ويفتح الظلام على النور.

الجمال الصغير

في آذار 2014، وقبل ذكرى مجزرة حلبجة ببضعة أيام، أقدم انتحاريّان، محسوبان على داعش، وأحدهما من مدينة "حلبجة"، على تفجير نفسيهما في مبنى فندق هدايا في القامشلي، فخرست حلبجة خليل حياتها، لأنها كانت حاملاً، وهي المولودة سنة المجزرة التي أيد فيها الأكراد كالحشرات، المستعدة لعيد ميلادها، كانت تنادي تحبباً "كيزية"، أي "الحشرة". سأختم بحكاية كردية فلكلورية شخصيتها الرئيسة هي الحشرة، رمز الجمال، وبعد موتها يستأنف الناس حياتهم على الفور، وكأن شيئاً لم يكن. الجمال عمره قصير، فأوكل به إلى حشرة تهابّ العصافير، إذ ما يسرنا قد يفرغ غيرنا، وأحياناً أسباب سعادتنا هي بالضبط أسباب شقاء آخرين. افترضتُ إن الخنفساء زوجة الفأر هي الراوية، وكلاهما، كأكرادٍ كثيرين، لا يجيدان السباحة. بأية حال، هذه هي صياغتي الشخصية للحكاية التي أعدتُ كتابتها بالكامل،



استناداً إلى مرويات شتى سمعتها في أمكنة وأوقات متباعدة، من عامودة إلى برشلونة.

زفاف اليتيمين

بعد شهوٍ عشناها نتخفى في التبن ونقتاتُ الروث اليابس، بُحْتُ بسرِّي:

أمي أغرَقها السيل، وأبي داسنهُ العريبات، وإخوتي اختفوا في حريقِ الحقول.

حين انتهت حياتي، دلقتُ فتاةً على رأسها سطلاً من اللبن، وأسبلتُ عرانيسُ الذرة أوراقها كأذانِ الحمير في آب، وأسقط الشجرُ أوراقه على بكاء حبيبي الذي ركض كالمجنون إلى البرية. طنّني قد هربتُ حين عاد من نزهته وناداني فلم أجبه. كنتُ أعدُّ له العشاء، محنيّةً على قدرنا الوحيد، قدر طعامنا وغسيلنا، أحركُ بملعقةٍ من خشبِ حساءِ العدس، فهويتُ وانتهيتُ ولم تُسمَع استغاثتي. لم يسمعُ ولولتي هذه المرة من سمع صياحي على صهوة جواده، من دون أن يراني، فأذاع ندائي تلك المرّة وأنا أغرق وراء التلة، فاستعجلَ حبي، فأتى وأنقذني.

من فصّح موتي؟

*

سئمتُ الوحدة فُجبتُ الطرقاتِ طويلاً أسعى، لكنني لم ألقَ من أتزوج ولا أخشاه. فكّرتُ كثيراً: بمَ سيضربني زوجي إذا تشاجرنا؟ استوقفني راعٍ يسألني: "إلى أين أنتِ ذاهبة أيتها الخنفساء، إلى أين يا حسناء البراري؟" صرختُ بالصدق، فخفتُ مما قلتُ: "لن أتزوج راعياً سيضربني بعصاه". ظللتُ أفتّش عن زوجٍ لا أتماوتُ معه ولا أخشى أن يقتلني.

الفأر، حبيبي، فاجأني: "سأضربك بخفقاتِ قلبي، وسيدوم عرسنا سبعة أيام بلياليها".

فأري يخاف ربّه الذي نجّاه. بمصيديّةٍ من خشب، في ليلٍ شتاءٍ ماطر، اصطادوا أهله كلهم، استدرجهم خبزُ يابس، عامٍ



الجوع الأكبر، أرملة رمتهم جرحى للقطط الجوعى فأكلوا في العتمة وهم أحياء.

ذيلُ حبيبي سوطُ حناني، ضفيرةُ تقسم ظهري حين أنام، حبلُ نجاتي الممدود إليّ إذا أهلكني الوحل. الآن نهايتُ خوفي.
أنت قويُّ يا فأري، شجاعٌ وخجول، خفيضُ الصوت وأقنى الأنف، على ظهرك يتأرجح صندوقي كهودج على ظهر فيل.
أنا يا حبّ بين ذراعيك آمنه، حضنك حصنُ حنان، وسوادي يتقرّح في مخدعنا قوسن قزح في عزّ الليل.

*

بين الأشواكِ العالية علقّت العناكب إكليلاً حاكنه لي على عجل ووسّحّه الرعدُ برداذِ الوحل.

لن أغسله في نهرٍ نصفه ماءً ونصفُ دم، فأنا أخشى ضفافَ الأنهار، تزلّ قدمي فأنزلق إلى التيار، ولا مغيثَ لمن زلّت
به القدم.

لن أغسلَ إكليلي في البئر ذات الأدرج، فأنا أخشى السقوط إذا زلّت بيّ القدمُ فيلدغني عقرب. ليس لي إلا البحر.

وانطلقنا نبحث عن ماءٍ لا أخشاه أغسلُ به إكليلي.

على كتفيه حملني حبيبي ومشى. مشى ومشى، حتى توقّف لأن سماء صافية رشفته ببضع قطرات. "أية معجزة أن
تمطر من دون غيوم! ماذا جرى؟" سألني، فأجبت: "لا شيء. قليلٌ من ماء الشيطان"، غضب لأنني بُلث على وبره
ففاح العفن، لكنّه سامحني، وقال: "يمميني وتيممي بغبّار الطريق. بعد قليل سنصل إلى البحر. أمامه، ينكشف سرّ
العالم. طريقنا ضيق، صنوبرةٌ عالية فلنتفياً، ريحاً خفيفة نسمع وبالقيلولة نهناً".

ولما رأيتُ بحراً لم يرّه أجدادي قطّ، قلْتُ: ضعني على هذه الحصاة، حبيبي، أفتح لك جناحيّ المقصوصين تحت
الشمس ككتابٍ تقرأ فيه سرّ العالم وتغفو. وا أسفني، هذا البحرُ لا يكفيني لأغسلَ إكليلي. كلانا لا نعرف سرّ العوم
ونخشى الماء، فانسَ واقرأني ودعنا نعد فجرَ غدٍ. سننامُ هنا الليلة يهدهدنا البحر، وسأحلم بك يا فأري، خفاشاً يترنّج
فوق الموج كبخّارٍ سكران ولا يأكلني.



*

اخرج احملني تحت الشمس. نهارنا أشرق، وتواري عدواك: نام البوم وعقت الحية.

لا بنات عرس على الطريق لتخطفني، قال حبيبي.

لا سحلية قرب الفانوس لتبلعني، رددت.

وتّر لي ظهره الناعم ليحملني، فالعريس سريّر عروسته، وعروسته بقوائمها الستّ سريّر آخر يحلم فيه هواء الصباح بنجمة. سريران يسيران على الطريق ويحلمان، وفي موكبنا غبارٌ ذهبيّ هدايا من أقدام النحل.

صارحني: عرسنا يدنو. أنت في الشمس زرّ من ذهب، وأنا رماديّ كطلّي: ذا اللون بعضٌ مما أهالهُ أجدادي من رمادٍ على رؤوسهم في فلك نوح. هل تسمعين مثلي عرساً لا نعرفُ أصحابه؟ أم تراه الجائع يهذي؟ لعلهم أولموا أرزاً ولحمًا. سأذهبُ وحدي ولن أتأخر. سأشبع، وسأتيك يا حبي بما يُشبعك من الأرز أخفيه لك تحت لساني.

مطرٌ كبيرٌ الحبات داهمني. لامعةٌ كعيونِ الفئران كانت حصباءُ الطريق، وعينُ حبيبي ألمع من أحداقِ عصافير أتحاشاها وأتواري إذا كنتُ وحدي. استترتُ بورقة تين، واستحممتُ بما انعقد من ماء السماء في نهايات الغصون.

ولما علت الشمس وسكنت سرة السماء، عاد حبيبي. أطعمني بفيه كالعصفور، واستراح من عناء الطريق. كانت أطلافُ جواميس قد شقت في الوحل حفرًا، جلستُ على شفا حفرة امتلأت مطراً، وشهقت: هذه نهاية رحلتي المشتهاة. ما أصفى هذي المرأة لا تُغرقُ أحداً. سنبقى هنا، سنوقد ناراً. بخوري قبّابي أحرقة لأعطر بخشب التين هواء الحب. الآن، أخيراً، سأسرح شعري وأغسل إكليلي.

موسم
الروحين



ذات الروحين



الكاتب: جولان حاجي